مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن من أشهر الفرق، فرقة الصوفية، ومن هنا فإنه يحسن دراسة فكر هذه الطائفة ومعتقداتها على ضوء الكتاب والسنة، ومن هنا كان هذا الحديث عن **(آراء الصوفية في أركان الإيمان)**، وقبل أن ندخل في هذا الموضوع أحب أن أتحدث عن مسألتين هامتين أولاهما: هل الصوفية لها وجود اليوم؟ أو أنها قد اندثرت ولم يعد لها وجود؟ والمسألة الثانية: ما منشأ التصوف؟ وما هي أبرز معالم منهج المتصوفة؟

والجواب أن هناك فرقاً عديدة اليوم تنتسب للتصوف وتدعو إليه، مثل فرقة الشاذلية في مصر وسوريا وليبيا والسودان والمغرب، وفرقة التيجانية في المغرب والسنغال ونيجيريا والسودان، بل إن بعض الباحثين يرى أن عدد التيجانيين في نيجيريا وحدها يزيد عن عشرة ملايين نسمة، ومن فرق الصوفية الطريقة الختمية في السودان، وفرقة البريلوية في الهند وباكستان وبنجلاديش وسريلانكا، ومن تلك الفرق النقشبندية والمولوية والقادرية والرفاعية والكتانية، والأحمدية الإدريسية، وهناك جماعات أخرى تأثرت بالصوفية وأخذت بعض معتقداتها مثل الديوبندية في شبه القارة الهندية، والنورسية في

تركيا، وغير ذلك من الطوائف والفرق، فظهر بذلك أن دراسة هذا الموضوع ليس إحياء لما اندثر بل هو دراسة لواقعنا المعاصر.

وأول مبدأ الصوفية كان قائماً على الزهد والتفرغ للعبادة وترك مظاهر الترف التي انتشرت في المجتمع الإسلامي، ولبس الصوف الخشن دلالة على ذلك، مما جعلهم يحرصون على العمل والعبادة ويبتعدون عن العلم مما أنتج سهولة دخول المعتقدات المختلفة عندهم بسبب عدم وجود علم يحميهم من ذلك.

وبالنسبة لتاريخ التصوف فقد وجدت مبادئه في عصر الصحابة، فأنكر الصحابة رضوان الله عليهم هذه المظاهر، فقد أنكر عمر على من يتفرغ للعبادة ويترك التكسب لنفسه ولعياله، وأنكر ابن مسعود على من يجتمعون في المسجد فيذكرون الله ذكراً جماعياً في الكوفة، وأنكر على من اتخذ دوراً للعبادة في بعض الجبال، فبدأت مظاهر التصوف ببدع صغيرة ثم مع مرور الزمن تطور ذلك فحدثت لديهم أمور عظام مخالفة للشريعة، والصوفية طوائف مختلفة، وفرق متعددة، يقع بينهم الاختلاف والشقاق، وبينهم منافسات، ويتحدث بعضهم بالقدح في بعضهم الآخر، وليسوا على مستوى واحد في التصوف والابتداع، وعندما أتكلم عن شيء من آراء الصوفية في أبواب الإيمان ليس معناه أن هذا الرأي موجود لدى جميعهم، وكذلك فإنه في عصرنا الحاضر وبعد انتشار وسائل الاتصال والمواصلات وجدت أن الكثير من المتصوفة بدأوا يتخلون عن بعض الأفكار الصوفية السابقة، لما رأوا الأدلة

صريحة في رد بعض معتقداتهم وبدعهم، وليس مرادي بهذا الحديث القدح المجرد في الأشخاص، وإنما أقصد التقرب لله عز وجل بمقارنة بعض اعتقادات المتصوفة بالقرآن والسنة رغبة في النصيحة وأملاً في النجاة لي ولهم يوم لقاء رب العالمين، وسأقسم حديثي عن هذا الموضوع بحسب أركان الإيمان، كما ورد في الصحيح بيان هذه الأركان لما سئل النبي ﷺ عن الإيمان قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)، أخرجه مسلم.

الركن الأول: الإيمان بالله

دلت النصوص الشرعية على وجوب الإيمان بالله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[النساء: ١٣٦] الآية، وعند استقراء النصوص الشرعية يمكن تقسيم ما يتعلق منها بالإيمان بالله إلى ثلاثة أقسام: الإيمان بأفعال الله تعالى، فهو الرازق الخالق المدبر، وهذا توحيد الربوبية. والقسم الثاني: الإيمان بما يجب علينا في حق الله تعالى من إفراده بالعبادة، وهذا توحيد الألوهية والعبادة، والقسم الثالث: الإيمان بأسماء الله وصفاته، فنصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[مريم: ٦٥]، فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا توحيد الربوبية وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ هو توحيد الألوهية، وقوله ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات.

أولاً: آراء الصوفية في توحيد الربوبية:

تواترت النصوص الشرعية بأن الله فعال لما يريد، لا راد لما قضى ولا معقب لحكمه، ولا يقع في ملكه إلا ما قدره وخلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[يونس: ٣١]، ومن

العجب أن تدعي طائفة من الصوفية أن الأولياء يتصرفون في الكون، فينفعون من شاءوا ويضرون من أرادوا، حتى زعموا أن الأرزاق بأيديهم، وأن هبة الأولاد من طريقهم، فجعلوا لأوليائهم بعض ما يختص الله به من الأفعال، وجعلوا أولياءهم أنداداً لله يساوونه في الخلق والإيجاد والرزق، ولاشك أن هذا اعتقاد باطل، ومن هنا خاطب رب العالمين سبحانه نبيه محمداً ﷺ مع رفعة منزلته وعلو مكانته فقال له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾[الأعراف: ١٨٨]، فالله هو الخالق وحده يرزق من يشاء ويمنع من يشاء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾[الروم: ٤٠] بمعنى أنه لا يوجد أحد يفعل ذلك إلا رب العالمين، فالتصرف في الكون، والإحياء والإماتة، وجلب الأرزاق راجعة إلى الله تعالى وحده، أما الأولياء والأنبياء فإنهم مهما بلغت منزلتهم لا يتصرفون في الكون ولا يفعلون أي فعل إلا بإذن الله وأمره، فالأرزاق بيد الله سبحانه وحده، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾[الذاريات: ٥٨]، وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ

تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾[الشورى: ٤٩- ٥٠]، وإنزال الأمطار وإنبات النبات هذا من رب العالمين وحده، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة: ٢١- ٢٢].

وقال سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[العنكبوت: ٦٣]، وقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[الشورى: ٢٨]، ومن هنا نعلم خطأ كثير من الصوفية في وصفهم أحد الأولياء بأنه القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا، أو الغوث الذي يغيث العباد؛ لأن هذا تجنٍ على مقام الربوبية ويناقض العديد من نصوص القرآن والسنة التي تبين اختصاص الله تعالى بتدبير الكون والتصرف فيه، وقد سبق إيراد نماذج منها.

ومن صور مناقضة بعض الصوفية لتوحيد الربوبية زعمه أن بعض الأولياء يعلم الغيب، فأين هؤلاء من قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[الأعراف: ١٨٨]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾[الأنعام: ٥٠]، فعلم الغيب مما اختص به رب العالمين، قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[الأنعام: ٥٩]، وقال جل وعلا:

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٢٠﴾[يونس: ٢٠] وقال ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾[هود: ١٢٣]، وقال سبحانه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[النمل: ٦٥]، بل زعموا أنهم يتصرفون في المقادير ويتمكنون من تغيير بعض ما في اللوح المحفوظ، فما أعظم مصادمة هذه الدعوة الكاذبة لقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)، وفي السنن بإسناد جيد: (أن أول ما خلق الله تعالى القلم- قال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة).

فالمقصود أن النفع والضر بيد الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾[يونس: ١٠٧]، وروى الترمذي بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

ومن أعظم أخطاء الصوفية في باب الربوبية: اعتقاد وحدة الوجود؛ بالاعتقاد بأنه ليس هناك موجود إلا الله، فلا يوجد غير الله في الكون، وهذه الظواهر التي

نشاهدها هي صور لتجليات الله، فجميع الموجودات هي رب العالمين، ولم أكن أتوقع أن يقول أحد بمثل هذه المقالة الكفرية التي تجعل الكفار والقاذورات صوراً لله تعالى؛ لأن الله عندهم هو الوجود المطلق، أقول: لم أكن أتصور أن يقول بذلك في زمننا عاقل يعظم الشرائع حتى وجدته منصوصاً في كتب بعض المتصوفة المعاصرين، وقد جرى بيني وبين بعضهم نقاش في ذلك، ومجرد تصور هذا القول يكفي في معرفة بطلانه ويلزم عليه صدق فرعون لما قال: (أنا ربكم الأعلى)، وعدم تكفير من قال بأن الله هو المسيح ابن مريم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾[المائدة: ٧٣]، فكيف بمن قال هو الوجود كله.

ثانياً: آراء الصوفية في توحيد الألوهية:

يراد بتوحيد الألوهية صرف العبادة لله وحده وعدم فعل أي عبادة لغير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾[الرعد: ٣٦]، وقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾[الزمر: ٦٤]، ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام يقولون لأقوامهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحقاف: ٢١].

ومن آراء الصوفية في باب توحيد الألوهية، صرف عبادة الدعاء لغير الله، فنجد أحدهم يقول: يا رسول الله أغثني، يا مهدي أدركني، يا بدوي اقض حاجتي، وهكذا، ودعاء غير الله من المحرمات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجن: ١٨]، والدليل على أن الدعاء عبادة قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فجعل الدعاء من الدين، ويدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم: ٤٩- ٥٠]، فانظر كيف عبر بالعبادة عن الدعاء؛ لأن الدعاء عبادة، وقد حكم الله عز وجل في كتابه بأن من دعا غير الله فإنه كافر لا يفلح، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾[المؤمنون: ١١٧]، وقد يقول قائل بأن دعاءهم مجرب في قضاء الحوائج وتفريج الكربات، وكم من الحكايات التي تحكى في ذلك. والجواب عن هذا بأن ذلك على فرض حصوله ليس بسبب الدعاء وإنما وافق قضاء الله تعالى، فإن الله قد حكم بأن من دعا غير الله فإن المدعو لا يستجيب له، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾[الرعد: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾[الإسراء: ٥٦]، وقال ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾[فاطر: ١٣- ١٤]، والمسلم يتوجه بدعائه لله عز وجل مباشرة ولا يحتاج في ذلك إلى واسطة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر: ٦٠].

ومما يدل على أن دعاء غير الله من الشرك والكفر قوله تعالى عن الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[الأعراف: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ﴾[غافر: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ

فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[العنكبوت: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[يونس: ١٠٦]، وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)، والنصوص في ذلك كثيرة متعددة.

ومن ذلك أيضاً صرف عبادة الذبح لغير الله من الأولياء ونحوهم فإنه شرك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾[الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (لعن الله من ذبح لغير الله).

ومن ذلك صرف عبادة النذر لغير الله أو التوكل أو الرجاء أو الخوف أو الاستغاثة، فإن هذه الأمور لا يصح أن يتوجه بها على جهة العبادة لغير الله تعالى، وكذلك لا يصح التوجه بعبادة السجود للأولياء أو الطواف لهم ولا لأحد غير الله، فإن العبادة حق خالص لله كما تقدم وصرفها لغير الله شرك.

ومن آراء بعض الصوفية في توحيد الألوهية طاعة الشيخ طاعة عمياء، ولو بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، وهذا مخالف للنصوص الشرعية الواردة بالأمر باتباع الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[الأعراف: ٣]، وقال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ

مُهۡتَدِينَ﴾[الأنعام: ١٤٠]، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩﴾[يونس: ٥٩].

وهذا أوصل بعضهم إلى التقاعس عن طاعة الله عز وجل؛ بل قد قال بعضهم إن الخاصة لا يحتاجون للعبادة، بل تسقط عنهم التكاليف لعظم منزلتهم عند الله؛ ولوصولهم لرتبة اليقين التي لا يحتاجون معها للعبادة، مع أن أفضل الأمة وهو نبيها ﷺ لم تسقط عنه التكاليف فكيف بمن دونه؛ بل كان يتحامل على نفسه في طاعة الله ويصلي بالليل حتى تتورم قدماه، ولما نوقش في ذلك قال (أفلا أكون عبداً شكورا).

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

جاءت النصوص الشرعية بوجوب الإيمان بالملائكة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥]، والملائكة من خلق الله، خلقوا من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ولا يخرجون عن قضاء الله وأمره، وقد علم الله جميع أحوالهم، منهم من ذكر الله لنا اسمه كجبريل ومنهم من سمى لنا عمله كملك الموت والملائكة الموكلين بالنطفة، وبعض الصوفية يتوجه بالدعاء للملائكة، وهو من المحرمات المخرجة من دين الإسلام كما سبق، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[الجن: ١٨]، وقال: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[آل عمران: ٨٠]، وقال: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وهذا يدل على أن الإنسان قد يظن أن بعض أفعال الجن هي من أفعال الملائكة وهذا ما يقع كثيراً عند بعض المتصوفة، ومن هنا قد يأتي بعض الجن فيلقي بعض الكلام، إما في نفس العبد أو على مسامعه، فيظن أن هذا الكلام هو من الملائكة على طريقة الكشف والإلهام والهواتف، والشريعة كاملة بالكتاب والسنة فلا نحتاج إلى شيء آخر لا يدرى ما هو، بل إن الجن والشياطين يوحون في قلوب العباد كما قال تعالى: +شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ

غرورا"، وقال ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾[الأنعام: ١٢١]، وهذا جعل بعض الصوفية يتوجهون إلى ما يسمى بتحضير الأرواح من خلال جعل الجن يتحدثون على لسان بعض الموتى، وجعلهم يستعينون بالجن في تحقيق بعض ما يريدونه، والأصل منع ذلك؛ لأن المقتضي لهذا الفعل وهذه الاستعانة كان موجوداً في عهد النبوة ومع ذلك لم يفعله ﷺ فدل ذلك على عدم شرعيته، ولأن الجن لا يبذلون أنفسهم إلا في مقابل، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

تواترت النصوص بوجوب الإيمان بما أنزل الله من الكتب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[الشورى: ١٥]، فنؤمن بأنها منزلة من عند الله، وأن الله تكلم بها حقيقة.

ومن آراء الصوفية فيما يتعلق بالكتب أنهم قالوا إن للقرآن ظاهراً وباطناً، وإن الظاهر هو علم الشريعة، وأما العلم الفاضل فهو علم الباطن الذي هو علم الحقيقة ولا يعلمه إلا خاصة الأولياء، وتوصلوا من ذلك إلى تأويل القرآن على غير ظاهره، وتفسيره بما يخالف مقتضى دلالته بحسب لغة العرب، مع أن الآيات متتابعة في أن القرآن نزل بلغة العرب، وأن فهم القرآن يكون على وفق هذه اللغة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[يوسف: ٢]، وقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾[الزخرف: ٣]، وقال ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾[فصلت: ٣].

ومن آراء الصوفية في ذلك تحريف القرآن عن معانيه بما يسمونه بالذوق والكشف، ولذلك تجدهم لا يرغبون في طلب العلم والتفقه في الدين.

وقد وصل الحال ببعضهم إلى أن قال بأن أذكار الصوفية المبتدعة أفضل من القرآن وأفضل مما ورد عن الرسول ﷺ من الأدعية والأذكار، حتى إن بعضهم يقول: قراءة ورد الشاذلي أفضل من قراءة القرآن، وقال آخرون منهم: صلاة الفاتح لما أغلق تعدل ستة آلاف ختمة من القرآن الكريم، فجعلوا الناس يهجرون القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾[الفرقان: ٣٠]، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾[الإسراء: ٨٨]، وفي الحديث: يقول الرب تبارك وتعالى: (من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) رواه الترمذي وحسنه، وطائفة منهم جعلوا السماع أفضل من القرآن، فأين هم من قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

الركن الرابع: الإيمان بالأنبياء

تواترت الأدلة على أن الله عز وجل أرسل إلى البشرية رسلاً وأنبياء يدلونهم إلى سبل الهداية والرشاد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقد أوجب الله طاعتهم فيما أمروا به وتصديقهم فيما أخبروا عنه، ونعتقد أن محمداً ﷺ هو أفضل البشر وخاتم الأنبياء، ونحبه فوق محبتنا لأنفسنا وفوق محبتنا للخلق أجمعين، وأن الله قد أكرمه وخصه بمزايا عظيمة منها الشفاعة والحوض.

وللصوفية آراء كثيرة فيما يتعلق بالإيمان بالأنبياء، ومن ذلك قول أكثرهم بأن النبي ﷺ قد خلق من نور، وأن النور المحمدي هو أصل الوجود، مع أن الله تعالى يقول: +قل - أي يا محمد- إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد"، ويرد عليهم أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾[المؤمنون: ١٢- ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[الإنسان: ٢]، ومن المعلوم أن النبي ﷺ قد ولد من أبوين قرشيين معروفين، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ﴾[آل عمران: ١٤٤].

ولم يكتفوا بذلك بل نسب بعضهم إلى النبي ﷺ زوراً وبهتانا أنه قال: (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين)، وقد صرح كثير من أهل العلم بأن هذا حديث موضوع

لا أصل له، وأن معناه باطل؛ فإن آدم عليه السلام لم يكن بين الماء والطين قط، فإن الطين ماء وتراب وإنما كان بين الروح والجسد.

وادعى بعضهم أن من علوم النبي ﷺ اللوح والقلم ومن جوده الدنيا وضرتها، والله عز وجل يقول له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾[الأعراف: ١٨٨]، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول لقرابته: (لا أغني عنكم من الله شيئا)، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٩﴾[الأحقاف: ٩].

ومن أخطاء بعض الصوفية - وهو شرك مخرج من الملة- التوجه للنبي ﷺ بالدعاء، فنجد أحدهم يقول: يا رسول الله اقض حاجتي، اشفع لي عند ربك؟!! مع أن الدعاء لا يجوز أن يصرف إلا لله؛ لأنه عبادة، وصرف العبادات لغير الله شرك يخرج من دين الإسلام كما تقدم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[البقرة: ١٨٦]، فلا نحتاج مع هذه الآية إلى دعاء غيره.

ويعتقد بعض الصوفية أن النبي ﷺ الآن حي يرزق مثل حياة من في الدنيا، مع أن الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾[الزمر: ٣٠]، فهو ﷺ قد مات لكنه في قبره يعيش حياة برزخية فوق حياة الشهداء، حياة ليست مماثلة لحياة الدنيا، ومن هنا نعلم بطلان قول بعض الصوفية إنهم لقوا النبي ﷺ وإنه يشهد احتفالاتهم

واجتماعاتهم، بل قد يطلب بعض الصوفية من النبي ﷺ مغفرة الذنوب مع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ١٣٥].

ومن الأمور المتعلقة بمقام النبي ﷺ مسألة التوسل، والتوسل بالنبي ﷺ على ثلاثة أنواع:

أولها: التوسل إلى الله بمحبة النبي ﷺ وطاعته واتباع شرعه، فهذا جائز مشروع، لأنه يجوز التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، قال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾[آل عمران: ١٩٣] إلى قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، ولا طريق إلى رضا رب العالمين ودخول جنته إلا بالتوسل إلى ذلك بالإيمان بالنبي ﷺ وطاعته.

النوع الثاني: التوسل إلى الله بدعاء النبي ﷺ بأن يطلب المرء من النبي ﷺ أن يشفع له عند ربه فيتوسل إلى الله بذلك فيقول: يا رب إني أتوسل إليك بكون نبيك ﷺ قد دعا لي، فهذا يصح ممن خاطب النبي ﷺ بخطاب بحضرته وممن كان حياً في عهده، أما من طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بعد موت النبي ﷺ فهذا قد توجه بالدعاء والطلب لغير الله، والدعاء حق خالص لله لا يجوز صرفه لغيره، ولذلك كان الصحابة في حياة النبي ﷺ يطلبون منه أن يدعو لهم أما بعد وفاته، فلم يطلبوا منه ذلك، ولذلك قال عمر: "اللهم إنا كنا نستسقي بنبيك فتسقينا وإنا الآن نستسقي بعم نبيك"، فلم يتوسل إلى الله بكون النبي ﷺ يدعو له بعد وفاته وإنما توجه إلى أحد الأحياء فطلب منه أن يدعو، فقوله: "نتوسل إليك بعم نبيك يعني بدعاء العباس رضي الله عنه، وقوله: "إنا كنا نتوسل بنبيك" معناه إننا الآن لا نتوسل بدعاء نبيك ﷺ لأنه قد توفي.

وأما حديث الضرير: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك"، فهذا على فرض صحته فالمراد به إني أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك، فإنه قد جاء للنبي ﷺ في حياته وطلب منه أن يدعو له، ولو كان التوسل بذاته لما ذهب إليه وطلب منه الدعاء ولذلك قال: (اللهم شفعه في)، ولو كان متوسلا بذاته لما صح منه هذا القول، ولم يقصر بعض المتصوفة ذلك على النبي ﷺ بل جعلوه لغيره من الأولياء.

ومن أنواع التوسل المبتدعة سؤال الله بذات الرسول أو جسده أو جاهه فإن هذا بدعة لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ وصحابته لم يفعلوه، و كل عبادة لم يفعلوها فإنها بدعة.

ولقد حرف بعض الصوفية الكلام فقال بأن توجيه الدعاء للنبي ﷺ يسمى توسلاً فإذا قال: يا رسول الله اشف مريضي قالوا: هذا توسل بالنبي ﷺ، وكل من عرف لغة العرب أو لديه عقل يفهم الألفاظ علم أن هذا دعاء للنبي ﷺ وليس توسلاً، ودعاء غير الله شرك ممنوع منه في الشريعة كما تقدم، وهذا نوع آخر مما يسمى توسلاً.

ومن معتقدات بعض الصوفية فيما يتعلق بركن الإيمان بالأنبياء أنهم قالوا: يسع بعض الناس الخروج عن شريعة الإسلام والتعبد لله بدون شريعته كما أن الخضر - وهو ولي- وسعه الخروج عن شريعة موسى، وزعموا أن الخضر حي الآن، وأنه لا يسير على وفق شريعة الإسلام، وأن الأولياء يقابلونه ويأخذون من علومه، وهذه اعتقادات مخالفة لدين الإسلام فإن رسالة محمد ﷺ يجب على جميع الناس اتباعها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[سبأ: ٣٠]، وقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ

﴿جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨] والخضر عليه السلام قد مات؛ إذ لو كان حياً لجاء للنبي ﷺ وتشرف بصحبته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[آل عمران: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾[الأنبياء: ٣٤]، وقد أخبر النبي ﷺ في إحدى الليالي بأن جميع من في الأرض تلك الليلة سيموتون قبل مائة سنة كما في الصحيحين.

ومما سبق تعلم أن بعض الصوفية يفضلون مقام الولي على مقام الأنبياء عليهم السلام، وقد صرحوا بذلك مع أن النبي ﷺ يقول: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر).

ويخاف على من يتكلم بهذا الكلام أن يكون قد انتقص مقام النبي ﷺ: فيكون داخلاً في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾[الكوثر: ٣].

ومن معتقدات بعض الصوفية أن الأولياء يتلقون الوحي من الله، وأنهم يأخذون الأحكام الشرعية بطريق الكشف أو الرؤيا حتى قال قائلهم: تأخذون علومكم عن الأموات ونحن نأخذها من الحي الذي لا يموت، وقد صرحت الأدلة وتواترت بختم النبوة وكمال الدين، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾[الأحزاب: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، فإذا كان الدين كاملاً لم نحتج إلى هذه المكاشفات ولا نحتاج لأخذ الأحكام الشرعية من الرؤيا المنامية وبين أيدينا كتاب الله.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[النحل: ٨٩]، وكتاب الله منزه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[الحجر: ٩]، وقال عنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[فصلت: ٤٢]، بينما هذه المنامات والمكاشفات لا يأمن الإنسان فيها من تلاعب الجن والشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[الأنعام: ١٢١]، وقد أجمع العلماء على أن قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩] أن المراد به كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ.

ومن تصرفات بعض الصوفية أنهم تقربوا إلى الله عز وجل بعبادات تخالف هدي النبي ﷺ، ومن ذلك ترك التكسب تقرباً لله بذلك، بينما الشريعة تحث عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث الصحيح: (ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده)، ونحو ذلك من النصوص، وتقرب آخرون منهم إلى الله بترك الزواج مع أن النبي ﷺ يقول: (إني أتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)، بل كان هذا هو هدي الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد: ٣٨]. وتقرب آخرون لله بترك طلب العلم الشرعي واعتقدوا أن طلب الحقيقة الصوفية أولى وأفضل من طلب العلم الشرعي مع تواتر النصوص بفضل العلم، وعلو منزلة تعلم علوم الشريعة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩].

وفي الصحيح: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، وقال ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، وفي صحيح مسلم: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)، وفي السنن: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر).

ونتج عما سبق أن الصوفية يحتقرون مكانة الفقهاء ولا يعرفون لهم فضلهم مع تواتر النصوص بعلو منزلتهم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[النحل: ٤٣]، وقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ **لعلمه الذين يستنبطونه منهم"**[النساء: ٨٣].

ومن ذلك أن الصوفية يتقربون إلى الله ببناء الأضرحة على قبور الأولياء، مع أن النبي ﷺ نهى عن البناء على القبور كما في صحيح مسلم من حديث جابر، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته).

ومن ذلك أن الصوفية يتقربون إلى الله تعالى بترك الجهاد وترك الأمر بالمعروف وعدم تعليم الناس الأحكام الفقهية، مع أن الشريعة قد تكاثرت أدلتها بفضل هذه

الأمور وعظم منزلتها، يقول النبي ﷺ: (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)، وقال: (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)، وقال: (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار)، وهذه أحاديث قد رواها البخاري، أما الأمر بالمعروف فاسمع قول الله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة: ٧١]، وفي حديث أبي سعيد في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وفي السنن بسند جيد يقول النبي ﷺ (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه)، وأما عن فضل تعليم الناس والدعوة لدين الإسلام فاسمع قول النبي ﷺ: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم) متفق عليه، وقوله: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا) أخرجه مسلم، وحديث أبي أمامة عند الترمذي بسند قوي أن النبي ﷺ قال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، وإن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير)، وفي حديث ابن مسعود: (نضّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع)، وإذا بحثت عند الصوفية لم تجد عندهم دراسة الأحاديث النبوية.

ومن ذلك تقرب بعضهم لله بالمؤاخاة بين الرجال والنساء الأجانب مع قول النبي ﷺ: (لا يخلونّ رجل بامرأة)، وقوله: (إياكم والدخول على النساء).

والنصوص قد أمرتنا أن لا نعبد الله عز وجل إلا بما جاء به النبي ﷺ، واعتبار أن كل عبادة لم يأت بها الرسول بدعة وضلالة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾[الأحزاب: ٢١] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)، وعند مسلم: (إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)، وفي السنن: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)، وزاد النسائي: (وكل ضلالة في النار)، ومع كل هذه النصوص إلا أن الصوفية قد ابتدعوا عبادات لم ترد في الشرع ولم يفعلها صحابة رسول الله ﷺ، ومن ذلك وضع دور للعبادة غير المساجد، والتعبد لله بالرقص والسماع والصوت والغناء، والتقرب لله بزوال العقل والسكر عند سماع الأذكار، وادعاء العشق مع الله، والاحتفال بالموالد النبوية وموالد الأولياء، والبيعة لمشايخ الصوفية، وذكر الله بالاسم المجرد: الله، الله، أو الضمير: هو، هو، أو السفر لزيارة القبور والمشاهد؛ بل وجعل مواسم معينة في السنة لزيارتها مماثلة لها بموسم الحج، فتجدهم يجتمعون في موسم من السنة بالملايين تقرباً لله، مع أن النبي ﷺ لم يشرع لنا اجتماعاً عاماً للأمة إلا في الحج.

ومن آراء الصوفية: التبرك بآثار الأولياء مشابهة بالأنبياء، مع أن التبرك يجب أن يكون خاصاً بما ورد فيه النص، ومن هنا لم يتبرك الصحابة بآثار أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما وهم أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ.

وكذلك لا يجوز الحلف بالأولياء، فلا يقول: وحياة سيدي البدوي ونحو ذلك؛ لقول النبي ﷺ: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)، وقال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، ثم أين أحوال المريدين في عهد النبوة وعهد الصحابة، فهل يكون الصوفية في أزمانهم المتأخرة أفضل من ذلك الزمان؟، ولم يكتفوا بذلك بل طلبوا من المريدين إلغاء عقولهم وعدم الالتفات إلى ما لديهم من أحكام شرعية طاعة لمن يزعمون أنه من الأولياء.

وأما بالنسبة للكرامات فنحن نؤمن بها لكنها قد تمنح للمفضول دون الفاضل، وقد تكون اختباراً للعبد هل يتمسك بعدها بهدي النبوة أو يعجب بنفسه ويغتر بحاله؟، ثم إن الكرامة ليست مطلوبة لذاتها، فالعبد لا تزداد منزلته بالكرامة وإنما تزداد منزلته بطاعة الله، ولذلك قيل: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن ربك إنما طلب منك الاستقامة، ولا يتوقف كون المرء ولياً على وجود الكرامة لديه، فإن الولاية تكون بالإيمان والتقوى لا بالكرامات، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[يونس: ٦٢- ٦٣]، فعدم الخوارق لا تضر المسلم ولا ينقص من درجته عند الله، أما بالنسبة لإجابة الدعوة فالأصل أن الله يستجيب دعاء الداعين، لكن قد يكون هناك مانع يمنع من إجابة الدعاء، وقد تكون مصلحة العبد في أن لا يستجاب له، فيدخر الله الثواب للعبد في الآخرة، وليس معنى أن يجاب دعاء عبد

من العباد أنه أفضل من غيره أو أن يطاع في معصيته لله، فهذا إبليس قد أجيبت إحدى دعواته بالبقاء إلى يوم البعث، وهذا النبي ﷺ قد أجاب الله كثيراً من دعواته ولم يستجب له عندما دعا لعمه أبي طالب ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦].

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

جعل الله يوماً يحاسب فيه العباد على أعمالهم، وللساعة علامات تدل على قربها ويسأل العباد في قبورهم وينعمون أو يعذبون فيها، وليوم القيامة أحوال وفيه أشياء عديدة قد وردت بها النصوص، ومصير العباد إما إلى الجنة أو إلى النار، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[البقرة: ٢٨١]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾[هود: ١٠٣- ١٠٤].

ومن آراء الصوفية فيما يتعلق باليوم الآخر أن قالوا بأن العبادة ينبغي فعلها محبة لله، وأن يكون مقصود العابد لقاء الله، ويترفعون عن الرغبة في دخول الجنة والخوف من النار، ويرون أن من قصد الرغبة في الجنة بعبادته فهو من العوام حتى أدى الأمر ببعضهم إلى احتقار الجنة، وإذا نظر المسلم في النصوص الشرعية وجد أن عبادة الله رغبة في الجنة وهرباً من النار لا تتنافى مع أن تكون العبادة لله من باب المحبة له سبحانه، ولذلك وجدنا أن النصوص الشرعية تخوف من النار: +فاتقوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ"[البقرة: ٢٤]، وترغب في الجنة: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[آل عمران: ١٣٣]، وأفضل البشر وهم الأنبياء أثنى الله عز و جل عليهم بكونهم يعبدون الله خوفاً وطمعا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ

﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء: ٩٠]، ووعد سبحانه الخائفين بالأجور المضاعفة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرحمن: ٤٦]، وقال ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[النازعات: ٤٠- ٤١]، والنبي ﷺ مع رفعة منزلته يترك المعاصي خوفاً من عقوبة الآخرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾[الأنعام: ١٥]، وكان الأنبياء يدعون أقوامهم من خلال تخويفهم من عقاب الله، فيقول الواحد منهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾[الأعراف: ٥٩]، ويعلم من ذلك أن من عبدالله بالمحبة بدون خوف من عقابه أنه مخالف لمنهج الأنبياء عليهم السلام وأنه مخالف لأوامر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥]، مما يدل على أن من لم يوجد لديه الخوف من الله فإنه ليس من المؤمنين، واسمع ثناء الله على أهل الإيمان الذين يعبدون الله خوفاً وطمعاً، يقول سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: ١٦- ١٧] الآية.

ومن أقوال الصوفية أيضاً: أن الله قد أعد لهم الجنة، فمثلاً التيجاني يقول بأن النبي ﷺ ضمن له ولأتباعه دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب مهما عملوا من الذنوب، ويقول الميرغني صاحب الطريقة الختمية أن النبي ﷺ أوصى رضوان خازن الجنة بأن يعمر جناناً ومساكن له ولأتباعه إلى يوم القيامة، وأوصى خازن النار بأن يبني فيها مواضع لأعدائه، وقال بمثل ذلك طوائف من الصوفية حتى قال أحد كبارهم: إن من رآه - يعني ذلك الكبير- دخل الجنة.

ومثل هذه الأقوال لا يجدون لها مستنداً من كتاب الله عز وجل ولا من سنة رسوله ﷺ، فيكون ذلك من القول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[الأنعام: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء: ٣٦]، ولما ذكر الله عز وجل المحرمات ذكر منها ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[البقرة: ١٦٩]، وهذا النبي ﷺ يقول: (والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي) أخرجه البخاري.

الركن السادس: الإيمان بالقدر

من أركان الإيمان: الإيمان بأن كل ما يقع في الكون من شر وخير فإن الله قد قدره وعلمه وكتبه في اللوح المحفوظ وخلقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]، وهذا لا يعني أن يترك العبد فعل الأسباب، كما لا يعني أن العبد ليس له إرادة ومشيئة؛ بل له ذلك لكن إرادته ومشيئته مرتبطة بمشيئة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التكوير: ٢٩].

وقد استدل بعض الصوفية بالقدر على تسويغ فعل المعاصي؛ لأنها من خلق الله، وكيف يخلق ما لا يرضى عنه، مع أن النصوص متكاثرة في أن الله قد يخلق ما لا يرضى إتيانه من العباد، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[محمد: ٢٨]، وقد رد الله على من كان يقول بمثل قول هؤلاء فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأنعام: ١٤٨- ١٤٩]، وحينئذ فلا يصح لأحد أن يحتج بالقدر بعد أن أرسل الله الرسل ومكن العباد من

طاعته قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[النساء: ١٦٥].

وقد فسر كثير من الصوفية التوكل بترك الأسباب في التكسب والتداوي وغير ذلك مما حدا ببعضهم إلى التسول، مع أنه من أدنى مراتب فعل الأسباب دناءة، وهذا يخالف النصوص الكثيرة التي ترغب أهل الإسلام في العمل ومزاولة الأسباب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[الملك: ١٥]، وفي الحديث: (لئن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أويمنعه)، ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام يزاولون الأعمال، وعلى ذلك وقع إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

الخاتمة

وفي خاتمة حديثي أشير إلى أمرين:

أولهما: إن باب التوبة مفتوح، وقد دعانا رب العالمين إليه، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم: ٨]، والتوبة تمسح ما حصل قبلها من الذنوب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[الزمر: ٥٣- ٥٤]، وقد ذكر الله عز وجل أن التوبة تنفع من الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨]، وعرض الله التوبة على الذين كفروا بقولهم إن الله ثالث ثلاثة فقال لهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[المائدة: ٧٣- ٧٤]، والله يفرح بتوبة التائبين كما قال النبي ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة) متفق عليه، والمرء لا يأمن من إتيان ملك الموت فجأة، فكم سمعنا بأنباء السكتات القلبية، والجلطات الدماغية، وحوادث السير، والله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، والله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، ومن هنا فإني أدعو جميع من انتسب إلى

الصوفية إلى التفكر في أحواله مع نفسه حالة كونه خالياً مع المشاغل والهموم والأهواء مع تذكره للقاء الله تعالى ومن ثم يقارن بين ما في القرآن والسنة من أحكام وبين ما يؤديه من أعمال.

والأمر الثاني: أن القرآن الكريم والسنة المطهرة بين أيدينا، فيجب على كل واحد منا أن ينشرهما طباعة ودراسة وحفظاً وتدبراً وعملاً مع الحرص على استفادة الأذكار منهما ونشرها لتحل محل الأذكار البدعية، وعلينا أن نستغل كل وسيلة ممكنة للدعوة إلى العقيدة الصحيحة المأخوذة من القرآن والسنة من خلال طبع الكتب وإنشاء المدارس وإعداد المعلمين واستعمال أجهزة الإعلام والاتصال وغيرها من الوسائل، وعلينا أيضاً أن ندعو إلى ترك الغلو في الأشخاص ولو كانوا من الأنبياء أو الأولياء مع إنزالهم في المحل اللائق بهم، وعلينا كذلك أن ندعوا إلى ترك مظاهر التصوف المخالفة للشريعة، وأن نزيل الأشجار والأحجار التي يتبرك بها، ونهدم القباب والمساجد المبنية على القبور، لقول النبي ﷺ (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، أسأل الله عز وجل أن يصلح أحوال الأمة وأن يرشد الضال منها، وأن يعيذها من شرور أنفسها وسيئات أعمالها، وأن يجنبها البدع والشرك ووسائلهما، وأسأله أن يجمع كلمة المسلمين على الحق وأن يصلح ولاة أمورهم وأن ينصر بهم دينه وأن يعلي بهم كلمته، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

الصف والإخراج وتنفيذ الطباعة
دار إشبيليا للنشر والتوزيع - الرياض
هاتف: ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠ . ص.ب ١٣٣٧١ الرياض ١١٤٩٣